11

شباب محمد صلى الله عليه وسلم

سبيل الدعوة

حسين محمد يوسف

دار الاعتصام

شباب محمد صلى الله عليه وسلم

رسائل الدعوة



حسين محمد يوسف

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

((ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين)) .

(النحل : ١٢٥)

تصدير

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعد ، فان الدعوة الى الله ، رسالة يؤديها طائفة من الأمة تصلح لادائها ، وتتوافر فيهم شروطها . قال عز وجل (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) .

فالدعوة الى الله يجب أن تكون على بينة وبصيرة (قل هـذه سبيلى أدعو إلى الله على بصـيرة أنا ومن إتبعنى وسبحان الله وما انا من المشركين) .

والدعوة الى الله ليست مجموعة من النوبات العصبية والشتائم والسباب تكال للخصوم ، وليست حركات تهورية .. فكل هذه الأمور تسيء الى الدعوة ولا تنفعها ، وتتسبب فى نكستها . ولكن الدعوة سبيلا حددها كتاب الله فى قوله تعـالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن) .

فعلى الدعاة أن يعرفوا سبيل الدعوة ويلتزموا أحكامها وآدابها .. فقد اختلطت السبل أمام كثيرين ممن عرضوا أنفسهم لحمل أمانة الدعوة ، وهم على غير بصيرة بها ، وليسوا أهلا لحملها ، وغير ملتزمين لآدابها .. فمنهم من رأى أن العنف هو أحد سبل الدعوة .. ومنهم من رأى أن جمع الحشود الهائلة هو أقرب الوسائل .. ومنهم من رأى أن الوصول الى السلطة هو أقصر الطرق .. ومنهم من رأى أن الدعوة هى تكفير الناس جميعا ، مسلمين وغير مسلمين ، مستحلين دماءهم بغير حق .. ومنهم من رأى أن الدعوة هى النيل من الأئمة الاعلام ، وسب الأولياء الصالحين بأقذع الألفاظ .. ومنهم من رأى أن الدعوة وعظ وارشاد فى بيوت الله فحسب . ومنهم من رأى أن الدعوة نشر ثقافة وعلم فحسب .. ومنهم من رأى أن الدعوة هى شغل الناس بقضايا فرعية خلافية ، فى نصوص ظنية الدلالة .

وما هكذا على الاطلاق ، سبيل الدعوة الى الله .

ونحن شباب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، نرى غير ما يراه هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء .. فلنا دراساتنا وفهمنا للدعوة ، أخذناها من مصادرها الأصيلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومنذ أكثر من خمسة عشر عاما ، أعد لنا الاستاذ حسين محمد يوسف ـ رحمه الله ـ كتابا بعنوان ((تحت لواء الرسول ـ الدعوة والداعية)) . وقد تضمن هذا الكتاب

مجموعة من الرسائل عن ((الاسلام والشباب — الدعوة الكبرى — سيد الدعاة فى نشأته — خلق الداعية — سبيل الدعوة)) . وكانت هذه الرسائل قد اعدت للأعضاء العاملين فى الجماعة فى موضوع الدعوة ووسائلها وأخلاقياتها . وبعد أن تم طبع الكتاب ، وكان على وشك الصدور، جاءت الأوامر من روسيا الى عملائها الذين كانوا يتولون الحكم فى أوائل عام ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م — فعطلوا الجماعة بدون قرار أو اجراء قانونى .. وهدموا مسجدنا ، ونهبوا مطبعتنا وأموالنا — وصادروا من بين ما صادروا هذا الكتاب ، قبل أن يصل الى أيدى الناس .

ولما كانت رسائل هذا الكتاب ، قد درسناها نحن الرعيل الأول من هذه الجماعة ، فقد حرصنا على اعادة طبعها ، ليستفيد منها الدعاة عامة ، والرعيل الثانى من هذه الجماعة بوجه خاص ، واخترنا أن نبدأ برسالة ((سبيل الدعوة)) التى نقدمها فى هذا الكتيب .

وسبيل الدعوة تقوم — كما أوضحت هذه الرسالة — على ثلاثة عناصر :

- قيادة مؤمنة صادقة .
- صف أول من المؤمنين المخلصين المجاهدين .
- أدب اسلامى فى الدعوة والتبليغ والجهاد فى سبيله .

هذه هى العناصر الثلاثة لموضوع هذه الرسالة ، التى

على صغر حجمها ، تناولت مواضيع جليلة وخطـــيرة ، وتضمنت دروسا وعبرا عظيمة . ونسأل الله أن ينتفع بهـــا شـــبابنا من الدعاة المخلصين ، ليسلكوا السبل الصحيحة التى سلكها سلفنا الصالح ، ويتجنبوا ما وقع فيه البعض من أخطاء .. حتى نصل الى النصر الذى وعدنا الله به .. طال الطريق أم قصر .. اقبل الناس علينا أم أعرضوا .. فكل هذه الأمور لا نقيم لها وزنا ، لأننا لا نتعجل الثمار قبل أوانها .. ولأنه لا يهمنا الا أمر واحد .. هو التزام الطريق الحق ... ومع هذا فنحن على ثقة بالنصر ان شاء الله ، ان صبرنا وثابرنا ، وثبتنا ولم ننحرف .. فقد وعـــد الله ، عباده الصادقين بالنصر فقال سبحانه (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) .

محمد عطية خميس
رئيس شباب سيدنا محمد
صلى الله عليه وسلم



تقديم

ما كان الله عز وجل ، وقد اصطفى خاتم أنبيائه ورسله منذ الأزل ، وتعهد روحه الشريفة بالصيانة والتأمين ، فى تقلبها فى الساجدين ، وتنقلها من الأصلاب الطيبة ، الى الأرحام الطاهرة ، من لدن آدم حتى حملت به أمه ..

ما كان الله عز وجل وقد أحاط نبيه وحبيبه بالرعاية فى طفولته ، وتولاه بالعصمة والوقاية فى شبابه ، وأكرمه بالنبوة والرسالة فى رجولته ..

ما كان لرب العالمين — وقد ألقى على سيد المرسلين قولا ثقيلا ، وحمله عبئا فادحا جليلا — الا أن يواصله بالارشاد ، ويرسم له سبيل الفلاح والرشاد ، ويوضح له التخطيط اللازم لنجاح الدعوة ، والوسائل التى يجب الاعتماد عليها ، والأساليب التى يلزم انتهاجها ، فى اقناع المستجيبين، ومجادلة المكابرين ، ومجاهدة الطغاة المتكبرين .

وقد اقتضت حكمته جل وعلا ، فى تخطيطه لأكرم دعوة ،

وتنظيمه لأشرف رسالة ، أن يسلك بها السبيل الطبيعى لأية دعوة جديدة ، حتى يستطيع الناس فى كل زمان ومكان ، اذا ما ادلهمت بهم الخطوب ، أو تكاثفت حولهم الظلمات ، أن يسلكوا سبيل الهداية والنور الذى رسمه رب العالمين ، لأشرف الانبياء والمرسلين ، ليتخلصوا مما هم فيه من حيرة وضلالة ، ويستردوا ما فقدوه من عز واقبال ، ويحققوا ما يبغونه من رفعة وكمال .

وسيجد الشباب فى هذه الرسالة تحليلا للسبيل الذى سلكته الدعوة ، والأطوار التى مرت بها ، والعقبات التى اعترضتها والآلام التى أحاطت بانصارها حتى استقرت فى النهاية قوية شامخة ، تبدد ظلمات الشك بنورها ، وتملأ القلوب ايمانا بصدقها ، ليتخذ الشباب من كل ذلك ، ما يقنعهم بأن الايمان ليس بالتمنى ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الله تعالى مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

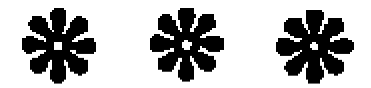
وليس أصدق من الاسلام دعوة ، ولا أشرف من القرآن رسالة ، ومن أجل هذه الحقيقة ثبت أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم — فى كفاحهم ، ثبوت الجبال الرواسى، وسموا فوق الحياة ، فتساوى لديهم السلامة والبلاء ، والحياة والفناء ، ما داموا فى سبيل الله يعملون ، وتحت لواء سيد المرسلين يجاهدون .

وما زال الاسلام هو الاسلام ، بقوته الدافقة ، وحيويته التى لا تفنى ، يمد كل من اقترب منه بالهداية والنور ، ويكفل

للعاملين به كل نصر وظهور ، فليتجه الشباب بقلوبهم اليه ، وليعضوا بالنواجذ على تعاليمه ، عسى أن يعيدوا سيرة الأولين ، ويجددوا مجد الغابرين ((ولينصرن الله من ينصره . ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الأرض ، أقاموا الصلاة وآتو الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور)) .

حسين محمد يوسف

تحريرا فى ٧ رمضان ١٣٨٠



« يا أيها المدثر • قم فانذر • وربك فكبر • وثيابك فطهــر • والرجــز فاهجر • ولا تمنن تستكثر • ولربك فاصبر » المدثر ١ ـــ ٧ •

القيـــادة القـــدوة

* طريق الداعية
* الصف الأول لدعوة الحق
* العلم وقيام الليل والطهر
* وحدة القلوب ضمان لوحدة الصف
* أربعة توجيهات
* الجهر بدعوة الحق

عماد كل دعوة صادقة : فرد يؤمن بها ، ايمانا يملك عليه مشاعره ، ويسيطر على وجدانه ، ويظهر أثره فى كل ناحية من حياته ، حتى يكون صورة مطابقة لما يؤمن به ، وقدوة طيبة لما يدعو اليه ، فاذا ما اكتملت فى أعماقه عوامل الايمان، فاض بالدعوة على أهله وعشيرته ، ثم انتقل بها الى اخوانه وجيرانه ، ثم اتسع بدائرتها حتى تشمل عامة الناس ، وتبلغ المدى المقدر لها فى علم الله .

وكذلك كان شأن الدعوة الاسلامية ، بدأت بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ، الذى تعهده رب العالمين بالتأديب والتهذيب فبلغ الذروة فى كمال الايمان ، وقوة اليقين ، حتى أنه صلى الله عليه وسلم ليقول : « **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** » (١) .

وهكذا اختص رب العالمين — فى بدء الدعوة — نبيه الكريم بالخطاب ليبدأ بنفسه ، فيضاعف الجهد فى الاقبال على ربه ، والتزود من طاعته ، استعدادا للنهوض بما أعد له ، من بلاغ خطير ، وجهاد مرير ، فأوحى اليه عز وجل ... بقوله :

---

(١) عن ابن مسعود باسناد صحيح .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الاكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم » العلق ١ ـــ ٥ •

ثم أتبعه جل وعلا بقوله :

« يا أيها المزمل • قم الليل الا قليلا • نصفه أو انقص منه قليلا • أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا • انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » المزمل ١ ـــ ٥ •

الدعـــــوة الى العـــلم :

وفى الآية الأولى دعوة الى القراءة والتعلم ، والخطاب وان كان موجها للنبى صلى الله عليه وسلم ، فانه يشمل من باب أولى كل من أراد أن ينهض بالدعوة الى الله ، فلا بد أن يكون عالما بما يدعو اليه ، متفقها فى أسراره ، محيطا بحكمته والا ظل جهله عقبة فى سبيل نشر الدعوة ، وبدلا من أن يفيض على من حوله من علمه وهدايته ، أفـــــاء عليهم بجهله وضلالاته ، فكان بذلك من الضالين المضلين ، وأهلك نفســه ومن معه أجمعين •

الدعوة الى قيام الليل :

وفى الآية الثانية دعوة الى قيام الليل أو بعضه ، وتلاوة القرآن فيه ، فان ذلك مما يعين الداعية على القيام بأعباء الدعوة ، بما يستمده من تأييد الله عز وجل ، وما يفوز به من

قوة الروح ، وصفاء النفس ، ونشاط البـــدن ، وعظيم الأجر من الله تعالى . قال صلى الله عليه وسلم : ((**ينزل الله عز وجل الى سماء الدنيا كل ليلة ، حين يمضى ثلث الليل الأول فيقول : انا الملك .. انا الملك ، من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ، من ذا الذى يسالنى فاعطيه ، من ذا الذى يستغفرنى فاغفر له ؟ فلا يزال كذلك حتى يضىء الفجر** (1))).

الدعـــــوة الى الطهر :

وقضى النبى صلى الله عليه وسلم حولا كاملا ، ملتزما أمر الله عز وجل فى قيام الليل ، كله أو بعضه ، حتى استكمل استعداده الروحى ، لتبليغ الدعوة .. فنزل قوله تعالى :

((**يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر**)) .

وتوضح هذه الآيات بعض ما يجب أن يتصف به الداعية الى الله ، **من نهوض بامر الدعوة ، وانذار الناس بها ، ومن تعظيم لأمر الله وثقة فى قدرته ، واعتماد عليه ، ومن تهذيب للنفس وتطهير للقلب حتى تكون جميع أعماله خالصة لله ، والناس ، فلا يمن على الله بما يقوم به من دعوة الى دينة ، ولا على النـــاس بما يبلغهم من هداية ، أو يفيض عليهم من حكمة ، لأن الفضل راجع فى كل ذلك الى الله تعـــالى ... وأخيرا من صبر على طاعة الله ، واحتمال للأذى فى سبيله ،** فان ذلك شأن أولى العزم الذين سبقوه فى تحمل أعباء النبوة ، وتقدموه فى الصبر على بلاء الرسالة ..

---

(1) صحيح مسلم عن أبى هريرة باسناد صحيح .

الصف الأول لدعوة الحق

وهكذا : أمر الله تعالى نبيه بالتبليغ والانذار ، واقتضت حكمته أن تلهمه بالتزام السرية فى دعوته ، وأن يبدأ بها أقرب الناس اليه ، وقد استجاب صلى الله عليه وسلم لأمر الله ، فأخذ يسر بأمره الى من يطمئن اليه من أهله فكانت خديجة رضى الله عنها أول من آمن به ، وتبعها على رضى الله عنه وهو ابن عشر سنين ، فزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك انتهى النبى صلى الله عليه وسلم من تبليغ الدعوة لأهل بيته ، وأكرمه الله بهدايتهم الى سبيله .

وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يختار من بين الناس ، أصفاهم قلبا ، وأكرمهم أخلاقا ، ليدعوهم الى دين الله ، ويهديهم الى نور الحق ، فكان فى مقدمة من استجاب لنداء الايمان ، أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد كان أوثق الناس صلة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بخلقه ، وأخبرهم بصدقه وأمانته ، مما كان له أعمق الأثر فى تلبية الدعوة ، دون تردد أو كبوة . قال صلى الله عليه وسلم :

ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كان عنده كبوة

وتردد ونظر ، الا أبا بكر ، ما عكم عنه حين ذكرته ، ولا تردد فيـــه (١) .

ولقد كان ايمان الصديق ايمانا ايجابيا ، فأخذ يدعو الى الاسلام كل من وثق به من قومه ، فأسلم على يديه عدد من أكابر رجال الدعوة ، مثـــل عثمان بن عفـــان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وســـعد بن أبى وقـــاص ، وعبد الرحمن بن عوف وأبى عبيدة بن الجراح ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وهو الذى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من داره مركزا للدعوة ، يجتمع فيها مع أصحابه ، فى مأمن من التحرش بهم ، أو التعرض لعبادتهم .

وهكذا تكون الصف الأول من رجال الدعوة ، الذين باعوا لله أنفسهم وأموالهم ، فقامت على أكتافهم دعوة الحق راسخة قوية ، وارتوت بتضحياتهم شجرة الاسلام ، التى يمتد أصلها فى الأرض ، ويصل فرعها الى السماء .

استوى هؤلاء السابقون الأبرار صفا واحدا خلف قائدهم العظيم ، على أستعداد لمتابعته فى أى سبيل ، ومصاحبته الى أية نهاية ، وبذلك تهيأت الدعوة للخروج من السرية ، التى اقتضتها حكمة الله فى تخطيطه لها ، لتبدأ باذن الله طورا جديدا ، تشق فيه الطريق علانية الى القلوب ، وتعلن فيه كلمة التوحيد فى كل مكان ..

---

(١) أبن اسحاق : عن حديث عبدالله بن الحصين التميمى .
وما عكم : اى ما تلبث .

وحدة القلوب .. ضمان لوحدة الصفوف

وبالرغم من أن سرية الدعوة فى هذه المرحلة ، حالت دون انتشارها . وحصرتها فى هذه الدوائر الضيقة ممن آمنوا بها ، الا أن هذا الطور من الدعوة قد جعل من هذه الحفنة الصغيرة وحدة متماسكة البنيان ، متحدة الشعور والوجدان ، فهم على قلب رجل واحد ، لا يختلفون حول أمر ، ولا يتفرقون عند رأى ، فقد ألفت العناية الالهية بين قلوبهم ، ووحدت الأهداف السامية بين أرواحهم ، لأنهم ما أرادوا بايمانهم جزاء ولا شكورا ، ولا قصدوا بدعوتهم رياء أو ظهورا ..

كانت هذه الوحدة الشاملة فى الأهداف ، والوحدة المتماسكة فى الصفوف ، والوحدة الجامعة للأرواح والقلوب .. كانت هذه الوحدة هى أكبر ضمان لقيام الدعوة على أمتن أساس ، وأعظم حماية لها ضد الخطوب والأحداث ، وأقوى دلالة على ما سوف تحققه لها الأيام ، من ظهور وانتشار .

ذلك أن وحدة الآراء بين رجال الصف الأول ، هى أقوى عوامل النجاح ، وأقرب سبيل الى النصر والفلاح ، **وهيهات أن تقوم لدعوة قائمة ، ما لم يتوفر للقائمين بها ، وحدة الشعور والوجدان لأن افتقاد هذه الوحدة ، دليل على تنافر الأرواح ، واختلاف القلوب ، واذا تنافرت الأرواح ، واختلفت القلوب ، فلا بد من تفرق الجمع ، وتمزق الشمل ، مهما كثر العدد ، أو طال الأمد ..**

قال صلى الله عليه وسلم :

((الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف)) (١) .

ومن ناحية أخرى : فان الاختلاف لا يمكن أن يكون حول الحق ، لأن الحق يؤلف بين أهله ، ويوحد بين أنصاره ، قال تعالى : **((لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم))** أى ألف بينهم بجمعهم على الحق ، وهدايتهم الى نوره .

وانما يقع الاختلاف بين أهل الباطل ، ويقع بين أهل الحق اذا ما اندس بينهم بعض المبطلين ، لأن الباطل لا يؤلف بين قلوب أهله ، فمهما تقاربت آراؤهم ، وتشابهت أهدافهم ، فانهم كما يقول الله تعالى : **((تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى))** الأنفال : ٦٣ .

ومن هنا : كانت دلالة الاختلاف بين رجال الصف الأول خطيرة المغزى ، لأنها تعنى أحد أمرين : اما ان الدعوة لا تقوم على الحق ، واما أن بعض القائمين بها ينقصهم الاخلاص والصدق .

ولقد كان الصف الأول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اروع صورة لما يجب أن يكون عليه رجال

---

(١) البخارى عن عائشة رضى الله عنها . أحمد ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة . الطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنهما باسناد صحيح .

الدعوة ، من وحدة الكلمة ، وايمان بالهدف ، وطاعـــة للقيادة ، ولذلك كانوا رغم قلتهم ، يملكون من القوة الكامنة ، ما مكنهم بعد قليل ، من الجهر بالدعوة ، فى وجه مجتمـــع فاسد شديد التعصب لضلالاته ، عميق التعلق بجاهليته ، وآثامه .

أربعـــة توجيهات

تكون الصف الأول للدعوة ، وتم اعداده لحمل مسئولية لقيادة والتوجيه فيها ، فكان لابد من الانتقال بالدعوة الى دائرة أوسع ، وكان لابد لايصال الدعوة الى هذه الدائرة من الجهر بها ، فى الحدود التى تتفق مع التخطيط الموضوع لها .. وقد بين الله تعالى لنبيه هذه الحدود حينما أوحى اليه بأمره ، وفى قوله جل وعلا : (**وانذر عشـــيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فان عصـــوك فقل انى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيـــم**) الشعراء : ٢١٤ ـــ ٢١٧ .

وقد جمعت هذه الآيات أربع توجيهات يلزم على الداعية ان يحرص عليها فى تبليغه للدعوة ، وجهره بها .

● **الأول : البدء بتبليغ الدعوة بحزم الى العشيرة الأقربين ،** لانهم أولى الناس بها ، وأحقهم بخيرها ومعروفها ، ولأن ايمان البعض منهم سيزيده قوة ومنعة ، فى حين أن اعراض الآخرين لن يضره كثيرا ، لانهم فى نهاية الأمر من عصبة ، ولن يوغلوا فى معاداته ، لما يربطهم به من صلات قبلية ، لها فى الجاهلية كل تقدير واعتبار .

● **الثانى : خفض الجناح للمؤمنين :** بإلانة الجانب لهم والتواضع فى معاملتهم ، والرحمة بهم ، تأليفـــا لقلوبهم ، وتثبيتا لايمانهم ، وتقديرا لوفائهم واخلاصهم .

● **الثالثة : عدم المبالاة باعراض المشركين** ، أو معصية المفرطين ، والاكتفاء بالتبرء من أعمالهم ، والاعراض عنهم .

● **الرابع : الاستمرار فى الدعوة ، دون مبالاة بما يصادفها من عقبات** . مع التوكل على الله تعالى ، وتفويض الأمر اليه ، فانه سبحانه وتعالى عزيز لا يقهر ، قادر لا يغلب ، رحيـــم لا يضيع عمل المؤمنين ، ولا يفلح كيد المجرمين .

* * *

الجهر بدعوة الحـــق

ولم يتردد سيد المرسلين فى النهوض بما أمر الله بـــه ، فدعا قومه الى طعام ، وهم يومئذ يقاربون الأربعين عددا ، ثم قال لهم : **((يا بنى عبد المطلب : انى والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم ، انى جئتكم بأمر الدنيا والآخرة (١)))** .

ولكن القوم أعرضوا عنه ، وسخروا منه ، فلم يزد ذلك من رسول الله الا اصرارا على تبليغ الدعوة ، وعزيمة فى الجهر بها ، فخرج صلى الله عليه وسلم ، حتى أتى الصفا فصعد اليها ، وصاح بالناس حتى اجتمعوا اليـــه ، فقال :

---

(١) البيهقى فى الدلائل من حديث على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

« يا معشر قريش : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هــذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى » ؟ قالوا : نعم . ما جربنا عليك الا الصدق . قال : « فانى نذير لكم بين يــدى عذاب شــديد !! » (١) .

ثم قــــال :

« يابنى كعب بن لؤى : انقذوا انفسكم من النار .. »

« يابنى مرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار .. »

« يا بنى عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار .. »

« يا بنى عبد منــاف : أنقذوا أنفسكم من النار .. »

« يا بنى هاشــم : أنقذوا أنفسكم من النار .. »

« يا بنى عبد المطلب : انقذوا أنفسكم من النار .. »

« يا فاطمة انقذى نفسك من النار ، فانى لا أملك لكم من الله شيئا ، غير أن لى رحما سأبلها ببلالها » (٢) .

فما كان من أبى لهب الا أن اعترضــه صائحــا : تبا لك !! الهــذا جمعتنا ؟؟

وانفض الناس ساخرين !

---

(١) أحمد فى مسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) صحيح مسلم من حديث أبى هريرة . قوله سأبلها ببلالها : أى أصلكم فى الدنيا ، ولا أغنى عنكم من الله شيئا .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يبـال بما صادفه من اعراض وسخرية ولم تصدمه هذه النتيجة المؤلمة ، لأنه انما يدعو الى الله ، ويقصـد بدعوته وجهاده وجه الله وحده ، وسواء لديه بعد ذلك ، اقبل الناس اليه ، أم أعرضوا عنه . وكذلك شأن الداعية الصادق ، لا توهنه العقبـات ولا ترده النكبات ، ولا تزيده الخيبة الا ايمانا واستبسالا .

ولا شك أن ما لقيه سيد المرسلين ، وهو المؤيد بروح الله ، المكرم برسالته ، فيه تعزية لدعاة الحق فى هذا الزمان، فيما يلقونه من انصراف الناس عنهم ، ومعارضة الجهلاء لهم ، حتى يتذكروا أنهم ليسوا أعز على الله من سيد المرسلين وليسوا أقدر على البلاغ المبين ، من الصادق الأمين .. فلا يهنوا .. ولا يحزنوا .. وكفاهم شرفا من الله أن سخرهم للتوجيه والارشاد ، وأن وفقهم الى سبيل الهداية والارشاد **« ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين »** . فصلت ٣٣ .

وهكذا .. استمر صلى الله عليه وسلم يدعو الى الله ليلا ونهارا ، سرا وجهارا ، لا يصرفه عن ذلك صـارف ، ولا يرده عن ذلك راد ، ولا يصده عن ذلك صاد ، يتتبع الناس فى أنديتهم ومجامعهم ، ويترقبهم فى المواسم ومواقف الحج ، يدعو كل من لقيه من حر وعبد ، وكبير وصـغير ، وغنى وفقير (١) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٤٠ .

«من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهــدوا الله عليــه . فمنهم من قضى نحبــه ومنهم من ينتظـــــر . ومـــا بدلوا تبــديلا » .

الأحزاب : ٢٣

الصف الأول

* بوتقة الدعوة
* النصر مع الصبر ..
* والفرج مع الكرب
* تراجع المبطلين
* طريق العزة
* انطلاق الدعوة
* بعد الحصار

بوتقـــة الدعوة

ولقد كان لجهر النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، صداه الطبيعى فى النفوس ، وتفاعله العميق فى المجتمع . لقد أحس القوم بخطر الدعوة الجديدة ، يهددهم فى كل ناحية، يهددهم فى دينهم وتقاليدهم ويهددهم فى نفوذهم وسلطانهم ، فكان لابد من مقاومة هذا الخطر ، والعمل على استئصاله قبل استفحاله .

وهكذا دخلت الدعوة فى طور جديد ، كان لابد أن تمر به أية دعوة ، تريد أن تشق طريقها الى الضياء والنور ، وتثبت جدارتها بالحياة والظهور ، تلك سنة الله فى خلقه ، وضحها فى محكم كتابه حيث قال :

((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ..)) العنكبوت ٢ و ٣

وهكذا تعرضت تلك الحفنة المؤمنة ، لأكبر فتنة ، وأخطر تجربة ، فسطا عليها المجتمع من كل جانب ، وتناوشتهـــا العواصف من كل ناحية ، وانصب عليها العدوان ، بمـــا تشيب له الولدان ..

هذا هو بلال بن رباح ، مولى أمية بن خلف ، وقد كان اذا حميت الظهيرة يخرجه ثم يأمر بالصخرة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو فى ذلك العــذاب الأليم : احد احد !!

وهؤلاء هم آل ياسر : كان المشركون يعذبونهم برمضاء مكة تارة ، ويكوونهم بالنار أخرى ، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يملك الا أن يقول لهم **« صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة** (١) حتى قضى ياسر فى العذاب ، وطعن ابو جهل سمية — زوجة ياسر — بحربة فى قلبها ، فقتلها ، وهى تأبى الا الاسلام ..

وهذه هى زنيرة جارية عمر بن الخطاب ، وقد كانت يتعهدها يوميا بالعذاب ، فتأبى الا الثبات على الاسلام ، حتى فقدت بصرها بتأثير التنكيل والايلام .

وتتبع المشركون كل من اسلم بالبلاء المبين ، حتى انهم « كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالسا ، من شدة الضر الذى به حتى يعطيهــم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له اللات والعزى الهان من دون الله ، فيقول نعم !! افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم(٢)» .

واشتد الكرب بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أن حبابا رضى الله عنه ليقول : « شكونا الى رسول الله

---

(١) البيهقى : من حديث جابر رضى الله عنه .

(٢) ابن اسحاق : من حديث ابن عباس رضى الله عنه .

صلى الله عليه وسلم ، وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، قلنا : الا تستنصر لنا ؟ الا تدعو لنا ؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال : « **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فيحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على راسه فيجعل نصفين ، ويمشط بامشاط الحديد ما دون لحمه وعظامه ، ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون !!** (١) » .

على ان كل ذلك لم يزد المؤمنين الا ايمانا وتسليما ، واصرارا وتصميما ، حتى أن ابا بكر رضى الله عنه أبى الا أن يتحدى قريشا فى عقر دارها ، فقام بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس فى البيت الحرام ، ويدعوهم الى الله والرسول ، فثار المشركون عليه ، وضربوه ضربا شديدا ، حتى أن عتبة بن ربيعة جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوفتين ، الى أن فقد وعيه ، واوشك على الهلاك ، لولا جاء قومه — بنو تميم — فأجلوا المشركين عنه ، وحملوه الى بيته — وهم لا يشكون فى موته — حتى لقد تعاهدوا على الثأر له من عتبة ابن ربيعة .. لولا أن بدأ أبو بكر يتكلم من آخر النهار ، فكان أول ما تمتم به هو السؤال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأجابته أمه : والله مالى علم بصاحبك ، فقال : اذهبى

---

(١) البخارى : من حديث ابى عبد الله خباب بن الأرت رضى الله عنه .

الى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه فذهبت اليها وعادت معها فوجدته على هذه الحال من الأذى ، فقالت : أن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وانى لأرجو أن ينتقم الله منهم ... قال : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأين هو ؟ قالت : فى دار ابن الأرقم ، قال : فان لله علىّ أن لا أذوق طعاما ، ولا شرابا أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فخرجتا به يتوكأ عليهما ، حتى دخل دار الأرقم ، فأكب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واكب عليه المسلمون ، وقد تأثر الجميع لحاله ، واخذوا باخلاصه وصدقه ، ورق له رسول الله صلى الله عليه وسلم رقة شديدة ــ وهو بالمؤمنين رءوف رحيم ــ فقال له أبو بكر : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ليس بى بأس ألا ما نال الفاسق من وجهى ، وهــذه أمى برة بولدها ، وانت مبارك ، فادعها الى الله ، وادع الله لها ، عسى الله أن يستنقذها بك من النار !

فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاها الى الله فأسلمت . ــ

هذا هو بعض ما وقع بالصف الأول من المؤمنين ، وهذا هو بعض ما دفعوه من ثمن ، فداء لدينهم ، ونجاة بأرواحهم ؛ ولا عجب فقد « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النــــار بالشهوات » ومن طلب العنقاء لم يغــله المهــر . وكذلك من وطد العزم على الفوز بشرف الدعوة إلى الحق ، والجهاد فى سبيل الله ، لابد وأن يسترخص كل غال ، ويضحى بكل

عزيز ، « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمـــا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** » آل عمران : ١٤٢ .

وما رجل الدعوة وقائدها بمنجاة مما أصاب أصحابه ، فلقد تحمل نصيبه من البلاء ، وضرب القدوة العالية فى الصبر على الضراء ، حتى أنه صلى الله عليه وسلم ليقول :

« **لقد اوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، واخفت فى الله وما يخاف أحد ، واقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال ما يأكله ذو كبد الا ما يوارى ابط بلال (١)** » !!

لقـــد اعترضه أبو جهل ذات يوم عند الصـــفا ، فآذاه وشتمه ، ونال منه ما يكره من العيب لدينه (٢) ..

و « بينما كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة ، أذ أقبل عقبة بن أبى معيط ، فأخذ بمنكب رســـول الله ، فلف ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديداً ، فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم (٣) ؟

وبينما كان صلى الله عليه وسلم يصلى عند الكعبة ، وجمع من قريش فى مجالسهم ، اذ قال قائل منهم : أيكم يقوم الى جزور آل فلان فيعمد الى فرثها ودمها وسلاها فيجىء به ، ثم يمهله حتى اذا سجد وضعه بين كتفيه ! ؟ فانبعث أشقاهم ،

---

(١) الامام احمد : من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : من رواية أبن اسحاق .

(٣) البخارى : من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

فلما سجد صلى الله عليه وسلم ، وضعه بين كتفيه ، وثبت النبى صلى الله عليه وسلم ساجدا ، والقوم يضحكون حتى مال بعضهم على بعض من الضحك ، الى أن جاءت فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، فرفعته عن ظهره ..

النصر مع الصبر .. والفرج مع الكرب

ولقد كان لثبات الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذين آمنوا معه ، وصبرهم على الأذى ذلكم الصبر الجميل ، واستعذابهم الآلام فى سبيل العقيدة التى استقرت فى أعماقهم ، كان لذلك اثره الفعال فى النفوس ، فازداد الذين آمنوا ايمانا بحقهم ، وازداد المشركون ترددا فى باطلهم ، وحيرة فى أمرهم ، واختلط حقدهم على المؤمنين ، باعجابهم بما أظهروه من ثبات ، وما تحملوه من اعنات ، وتفاعلت نفوسهم بشتى الأحاسيس ، وظهرت آثار ذلك جلية فى خيارهم ، فأسلم حمزة ابن عبد المطلب ، غضبا لتطاول أبى جهل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسبه له وأحتقارا لعدوان المشركين على أبى بكر ، وتبعه فى اليوم التالى مباشرة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، فاشتد ساعد الدعوة باسلامهما ، وأحس المشركون بأن مقاومة الحق بالقوة والقهر ، لا تزيده الا ظهورا وانتشارا .. فعدلوا عن سبيل البغى والارغام ، الى سبيل المفاوضة والاحتجاج ، فذهبوا الى أبى طالب يشكون اليه النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون : « يا أبا طالب : ان ابن أخيك سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل

آباءنا ، فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه » (١) .

وكانت حكمة المولى عز وجل ، قد اقتضت — فى تأييده لنبيه ، وتخطيطه للدعوة ، أن يبقى أبو طالب على دين قومه، ليدرأ عن نبيه وحبيبه عدوان المشركين ، اذ لو أسلم ما كان له عندهم وجاهة أو هيبة ، ولاجترؤا عليه ، ولمدوا أيديهم والسنتهم بالسوء اليه ، ولما وجد النبى صلى الله عليه وسلم الركن الذى يستند اليه ، ويعتمد عليه ، **« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »** .

* * *

وهكذا رد أبو طالب قومه ردا جميلا ، فانصرفوا عنه ، واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريقه ، حتى كبر على المشركين ما يدعوهم اليه ، فعادوا الى أبى طالب ، أشد حقدا واصرارا ، فقالوا له :

« يا أبا طالب : ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وانا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وأنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله واياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٢٢٣ .

الفريقين (١) » .

عظم على ابى طالب تهديد القوم له ، وعداواتهم اياه ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

« يا ابن أخى : ان قومك قد جاءونى فقالوا كذا وكذا ... فابق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق (٢) .

وجد النبى صلى الله عليه وسلم نفسه فى مفترق الطريق، وأحس بأن السند الوحيد الذى كان يعتمد — بعد الله — عليه سيزداد وعورة ، والأخطار ستزداد شدة وحدة ، ولكن هيهات أن يغير ذلك من ايمانه ، أو أن يفت ذلك فى عزيمته ، لأن أقل تردد من رجل الدعوة ، سيجد صداه مضاعفا فى صفوف المؤمنين ، فلا بد من الثبات مهما كانت الأحوال ، والله غالب على أمره ، لا يذل من والاه ، ولا يعز من عاداه ، انه نعم المولى ونعم النصير .

لم يتردد النبى فى اختيار طريق أولى العزم من الرسل ، فقال لعمه :

« يا عم : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن اترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك

---

(١) البداية والنهاية ٤٧/٣ .
(٢) البداية والنهاية ٤٨/٣ .

فيه ما تركته » (١) .

نفذت قوة الايمان التى فاض بها قلب سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، الى اعماق عمه ، فاذا به — وهو الحريص على رضاء قومه ، المتفق معهم فى العقيدة — يقول للنبى صلى الله عليه وسلم :

« اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فو الله لا اسلمتك لشىء أبداً » (٢) .

وهكذا يفعل الايمان الصادق بالنفوس ، انه ينير أشدها ظلمة ، ويذيب اكثرها قساوة ، ويخضع أعظمها تمردا وعنادا ..

تراجع المبطلين

ولم يقف اثر هذا الايمان عند حد أبى طالب ، لقد تعداه الى خصوم الدعوة نفسها فعدلوا عن التهديد والعناد ، الى المساومة والاغراء ، ظنا منهم ان الرسول صلى الله عليه وسلم ، انما يريد بهذه الدعوة جاها لنفسه ، أو مجدا لشخصه، فأرسلوا اليه فقالوا :

« يا محمد : انا بعثنا اليك لنكلمك ، انا والله ما نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه ما ادخلت على قومك ... فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ،

---

(١) و (٢) البداية والنهاية ٤٨/٣ .

وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك ـــ اى مسا من الجن ـــ بذلنا اموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيك (١) » !!

ولكن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم رفض كل ما عرض القوم عليه من مال وجاه ، ومن ملك وسلطان ، لأنه انما يريد وجه الله تعالى ، ولأنه يعلم علم اليقين أن قبوله مع عدم وجود العصبية الاسلامية الكافية لاعزاز كلمة الدين ، واعلاء دعوة الحق ، سيجعله تحت رحمة خصومه ، فاما أن يجاملهم فى حق الله ، طمعا فى الابقاء على ما منحوه أياه ، من ملك وسلطان ـــ وحاشا لنبى يفعل ذلك ـــ واما أن يحرص على القيـــام بحق الدعوة ، فيصطدم بأهوائهم ، ويتعرض ابطشهم دون أن يستطيع دفاعا ، ولامتهانهم باسقاطه من الملك ، وطرده من السيادة والسلطان .

من أجل ذلك أعرض النبى صلى الله عليه وسلم عن كل تلكم الوعود ، واعتصـــم بربه وبمن معه من المؤمنين وفضل الصبر على الأذى ، على حكم زائل ، وسلطان باطل ، فقال للقـــوم :

« ما بى ما تقولون .. ما جئت بمـــا جئتكم بـــه أطلب اموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وانزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ما جئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٠/٣٢٨ .

اصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم (١) » .

وهكذا شأن الداعية الصادق مع ربه ، لا يحمله استعجال النصر على التعاون مع أعداء الله ، أو التهاون فى تبليغ أمر الله ، لأنه فى غنى بالله عن الناس جميعا ، ولا يغنيه النـــاس جميعا عن الله تعالى .

أحس القوم بصغارهم امام عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم وسلم وآبائه .. أحسوا بضعفهم — وهم الأقوياء عدة وعددا — أمام ثبات الرســـــول صلى الله عليه وسلم واصراره ، .. احسوا بكيانهم ينهار ازاء هدوئه وتسليمه ، .. احسوا بباطلهم يتزلزل امام قوة الحق الذى ينادى به ، ويدعو اليه ... أحسوا بأن الهزيمة توشك أن تحيق بهم ، فأخذتهم العزة بالاثم ، ودفعتهم عنجهية الجاهليـــة الى أن يحاولوا الاحتفاظ بكيانهم ، والتعصب لبهتانهم ، والاصرار على مكابرتهم وعنادهم ، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وســـلم :

« يا محمد : ما بالك وأنت رسول الله ، تأكل الطعام ، وتقف بالأسواق ... » ظنا منهم أن النبوة تتعارض مع اكل الطعام ، أو ان النبى لا يجوز أن يكون بشرا ، أو أن وقوفه معهم فى الأسواق وتواضعه معهم ، واختلاطه بهم ، يعظهم ويهديهم ، ويأمرهم وينهاهم ، كل ذلك لا يتفق مع جلال النبوة ، وشرف الرسالة .

وقد رد الله تعالى عليهم ابلغ رد فقال :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٢٨/١٠ .

« وقالوا مال هـــذا الرسول ياكل الطعـــام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة ياكل منها وقال الظالمون ان تتبعـــون الا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضـــلوا فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا . »
الفرقان : ٧ ـــ ١٠ .

ثم قال عز وجل :

« وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم لياكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة اتصبرون ، وكان ربك بصيرا » الفرقان : ٢٠ .

وواصل المشركون عنادهم ومكابراتهم ، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « انك قد علمت انه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل مالا ولا أشد عيشا منا ، فسل ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قـــد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليخرق لنا فيها أنهـــارا كأنهار الشام ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، ـــ وليكن فيمن يبعث لنا قصى بن كلاب ، فانه كان شيخ صدق ـــ فنسألهم عما تقول : أحـــق هـــو أم باطل ؟ . فـــان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى ، وانه بعثك رسولا كما تقول !!

فقال لهم صلى الله عليه وسلم :

« ما بهذا بعثت اليكم ، انما جئتكم من الله تعالى بمـــا بعثنى به ، وقد بلغتكم ما ارسلت به اليكم ، فان تقبلوه فهو

حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم)) .

فأبى القوم الا تعنتنا ... فقالوا :

((فاذا لم تفعل هذا فخذ لنفسك . سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وأسأله فليجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبغى ، فانك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ان كنت رسولا كما تزعم)) .

فقال صلى الله عليه وسلم :

((ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هـــذا ، وما بعثت بهذا اليكم ، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا ..)) .

واستمر القوم فى جدالهم فقالوا :

((فأسقط علينا كسفا كما زعمت أن ربك أن شاء فعل ، فإنا لن نؤمن لك الا أن تفعل)) !

فقال صلى الله عليه وسلم :

((ذلك الى الله عز وجل ، ان شاء أن يفعله بكم فعل)) .

فقـــالوا :

((يا محمد : فما علم ربك انا سنجلس معك ونســألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم اليك فيعلمك بما تراجعنا به ، انه قد بلغنا انك انما يعلمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن ، وانا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا اليك يا محمد ، وانا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .. ولن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة

قبيلا . او تتخذ الى السماء سلما ، ثم ترقى فيه حتى تأتيها ، ثم تأتى معك بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك انك كمـــا تقول ، وأيم الله لو فـــعلت ذلك ، ما ظننت انى أصدقك (١) !!

وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حزينا آسفا ، لما فاته من هداية قومه ، ولما رآه فيهم من عناد فى الباطل ، ومكابرة للحق ، واصرار على الضلالة ، وأبي الله تعالى الا الرد على المكابرين ، وافحام المتعنتين ، تعزية لرسوله ، وتثبيتا لايمانه ، فأنزل قوله تعالى :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تاتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل ســـبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا . وما منع الناس أن يؤمنــوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من الســماء ملكا رسولا ..» الاسراء ٩٠ ــ ٩٥ .

اعتراف المشركين بدعوة الحق

ولقد طالت مجادلات المشركين لرسول الله ، ومحاولاتهم معه ، وهو لا يتزحزح قيد شعرة عما أمر به وأنزل عليه ، فلا يزداد مع الأيام الا قوة ، ولا يزدادون الا شكا وخسرانا ،

---

(١) البداية والنهاية : ٣/٥١

حتى غدوا فى حيرة من أمرهم فلا هم قادرون على البطش برســـول الله ، خوفا من انحياز بنى هاشم اليه ، ولا هم مستطيعون اغراءه بأعراض الدنيا ، وقد أظهر لهم زهده فيها ، وتضاؤله عنها ، ولا هم حائلون بين دعوته وبين التسلل الى أعماق القلوب ، لما لهذه الدعوة من سحر ، ولمـــا عرف بـــه صاحبها من صـــدق واخلاص ، لا فى نفـــوس المؤمنين بـــه فحسب ، بل فى نفوس المتربصين به ، المعاندين له ، حتى أن عتبة بن ربيعة ــ وقد انتدبه قومه لمساومة الرسول صلى الله عليه وسلم ــ ما كاد يطلع عليهم عائدا من لدنه ، حتى قال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغـــير الوجه الذى ذهب به !!

فلما جلس اليهم قال لهم :

« والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة .. يا معشر قريش : أطيعونى واجعلوها لى ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به !! » .

بل لقد طرقت دعوة الحق بقوتها جبابرة القوم ، حتى ساقتهم الى الاستماع للرسول ، وهو يرتل القرآن ترتيلا ، أثناء صلاته فى جوف الليل ، حتى أن أبا جهل وأبا سفيان ، والأخنس بن شريق خرج كل منهم ذات ليلة .. فأخذ كل واحد مكانه دون أن يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون القرآن حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا وقال

بعضهم لبعض : « لا تعـودوا ، فـلو رآكـم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا » ، .. فلما كانت الليلـة الثانية ، عاد كل منهم الى مجلسه ، فباتوا يستمعون القرآن حتى أصبحوا ، فتفرقوا منصرفين ، فاذا بهم يلقى بعضـهم بعضا ، فقالوا مثل قولهم بالأمس ، ولكن وقع القرآن فى نفوسهم كان أقوى من أن يقاوم ، فلما كانت الليلة الثالثة تسلل كل منهم الى مكانه ، فباتوا يستمعون القرآن حتى مطلع الفجر ، فلما جمعهم الطريق فى عودتهم ، قالوا : لا نبرح حتى نتعاهد الا نعود ، فتعاهدوا على ذلك وتفرقوا .. (١) .

وهكذا كانت دعوة الحق تشق طريقها ، لا فى صـفوف المؤمنين بها فحسب ، بل فى صفوف المعاندين لها ، فقد جحدوا بها فى ظاهر الأمر ، واستيقنتها أنفسهم فى الحقيقة والواقع حتى أن الأخنس بن شريق ، أتى أبا سفيان صبيحة اليـوم الذى تعاهدوا فيه على أن لايعودوا ، فقال له :

ـ أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سـمعت من محمـد ؟

فقال : يا أبا ثعلبة : والله لقد سمعت أشـياء أعرفها وأعرف ما يراد بها .

فقال الأخنس : وأنا .. والذى حلفت به !!

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل .

فقال له : يا أبا الحكم ! مارأيك فيما سمعت من محمد ؟ .

---

(١) البداية والنهاية ٦٣/٣ ـ عن رواية البيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما .

فأجاب : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا ، واعطوا فأعطينا ، حتى اذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذا ؟ والله لا نسمع به أبدا ولا نصدقه (١) !! .

فأعداء الحق لم ينكروه لشكهم فى صحته ، وانما فعلوا ذلك حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق . ؟

طريق العـــزة

كان من الطبيعى وقد وصلت الدعوة فى موقفها من المشركين ، وموقف المشركين منها ، الى هذا الوضع من الجمود ، أن يتطور الأمر بين الفريقين ، فقد أحس المشركون بأنهم لا يزدادون بمرور الأيام الا ترددا وضعفا ، فكان لابد لهم من أن يشتدوا فى مقاومة الحق ، والتنكيل بأهله ، انتقاما لما فقدوه من كرامة وهيبة ، وما أصابوه من هزيمة وخيبة ، وبعكس ذلك : كان النبى صلى الله عليه وسلم . فقد أيقن أن دعوته تزداد بمرور الأيام رسوخا وقوة وأنها تشق طريقها حثيثا رغم كل العقبات ، وتنفذ بشعاعها الى كل القلوب رغم ما بذله القوم من محاولات ومكابرات ، فكان لابد له من أن يواصل الطريق الذى أمره الله به ، بعزيمة قوية ، وهمة عالية ، ليحقق للدعوة القوة اللازمة لظهورها ، واعزاز كلمتها ..

---

(١) البداية والنهاية ٦٣/٣ .

وجاء الوحى من السماء محققا للرسول الأعظم امنيته ، وموضحا له وجهته ، ودافعا به الى الجهر بالدعوة ، دون مبالاة باستهزاء ، أو خوف من اعتداء ، فنزل قوله تعالى :

« فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين . انا كفيناك المستهزئين . » الحجر ٩٤ و ٩٥ .

وقد تضمنت هذه الآية من المعانى القوية ، ما يوضح لسيد الدعاة سبيل الدعوة فى مرحلتها الجديدة ، نحو العزة المنشودة .

أولها : الأمر بالصدع : أى صدع المعاندين للدعوة ، باعلانها قوية لهم ، واقامة الحجة بها عليهم ، فان ذلك سيؤدى الى تفرق صفوفهم ، واختلاف آرائهم ، كنتيجة لقوة الحق الذى يزلزل باطلهم ، فيدفع البعض منهم الى التسليم به ، والانصياع له ، ويدفع البعض الآخر الى التردد والشك، ويبقى الآخرين على المكابرة والعناد .

ثانيها : الأمر بالاعراض عن المشركين ، وهو تعزيز للأمر بالصدع ، ونتيجة طبيعية له ، لأنه لا سبيل الى اعلان الدعوة ، واقامة الحجة ، مع مصاحبة المعاندين لها ، أو مصادقة المتربصين بها بعد أن ثبت اصرارهم على الباطل ، وكراهيتهم للحق . أنما تظهر الدعوة ، باقامة الحجة بها وتسفيه الآراء المضادة لها .

ثالثها : الوعد بالكفاية من الأذى ، وهو تمكين للأمر بالاعراض عن المشركين ، وتثبيت للرسول صلى الله عليه وسلم حتى يقوم بأمر الله ، فلا يخاف أحدا سواه ، ولا يقيم وزنا لمن

عداه ، ووعد من الله تعالى للقائمين بأمره ، الداعين الى سبيله ، انهم ان صدقوا فى دعوتهم ، ولم يخشوا فى الله لومة لائم ، أن يكلأهم الله تعالى برعايته ، ويحيطهم بحمايته ، ووعيد لأعدائهم أن الله من ورائهم محيط ، فمهما دبروا ومكروا ، ومهما توفر لهم من قوة البطش والسلطان ، فهم الى الهلاك صائرون ، وما الله بغافل عما يفعل الظالمون.

ولقد تحقق ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كفاه الله شر المستهزئين ، الذين تمادوا فى ايذاء الرسول الأعظم ، وأكثروا الاستهزاء به ، « وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة ، وهم : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث ابن الطلاطلة أهلكهم الله جميعا فى يوم واحد » (١) .

انطلاق الدعوة بعد الحصار

وقام سيد الدعاة صلى الله عليه وسلم بأمر الله ، حتى فشا الاسلام فى القبائل ، وقابل المشركون ذلك بالشدة على المسلمين ، حتى بلغ بهم الجهد ، واشتد عليهم البلاء ، فما زادهم الا ايمانا وتسليما ، حتى اعتزم القوم فى النهاية قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية ، ولكن الله تعالى سخر ابا طالب لحماية نبيه وحبيبه فأمر قومه أن يدخلوه شعبهم ، وأن يمنعوه ممن أرادوا قتله ، « فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعله حمية ، ومنهم من فعله ايمانا ويقينا .. فأجمع المشركون أمرهم ان لا يجالسوهم ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٦٢ .

ولا يبايعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم ، حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل (١) » وكتبوا بذلك صحيفة علقوها بالكعبة ، ولم يقفوا فى عدوانهم عند هذا الحد ، بل سطوا على من أسلم عندهم فأوثقوهم ، وآذوهم ، ايذاء شديدا ..

وأقام المسلمون على ذلك سنتين أو ثلاثا ، لا يصلهم شىء من الطعام الا سرا ، حتى أكلوا ورق الشجر ، وحتى سمعت أصوات صبيانهم يتضاغون جوعا ومسغبة ، فعظمت بهم الفتنة ، واشتد بهم الكرب ، وزلزلوا زلزالا شديدا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم يثبتهم ويواسيهم ، مواصلا الدعوة الى الله ، مناديا بأمره ، داعيا الى سبيله ، حتى أحس القوم بعجزهم أزاء ذلكم الايمان ، الذى لا تزعزعه الشدائد ، ولا تنال منه المحن والكروب ، وتحول حقدهم على المسلمين ، الى اعجاب بجلدهم ، وتعظيم لبطولتهم ، وانقلب شعورهم بالفخر بايذائهم ، الى احساس بالخزى من فعلتهم ، فتلاوم البعض منهم فيما بينهم ، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم ، وأستخفوا بالحق ، فاجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من اثم ، والتبرء مما وقعوا فيه من ظلم وعدوان ، وهكذا تطرق الخلاف الى صفوف المبطلين ، وخرج المسلمون من هذه المحنة ، وهم أقوى ايمانا ، وارسخ يقينا ، واشد وحدة وتضامنا واعظم شدة وبطشا .

***

---

(١) البداية والنهاية ٨٤/٣ من رواية موسى بن عقبة عن الزهرى .

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظـــة الحسنة وجـــادلهم بالتى هى احســــن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

(النحل ١٢٥)

من آداب الدعوة

ادع الى سبيل ربك

ـــانطلقت الدعوة من معقلها الذى انحصرت فيه طوال ثلاث سنوات واستعاد رسول الله صلى الله عليه وسـلم حريته فى الخروج والاتصال بالناس ، وقد فعلت الشـدائد التى اجتازها المسلمون فعلها فى قلوب المشركين ، فأذابت من البعض قسوتهم ، وبددت قسطا من ظلماتهم ، وأصبح الكثيرون منهم أوفر استعدادا للاستماع للدعوة ، وأكثر قربا الى تصديقها من قبل ، فكان لابد لمقابلة هذا الظرف الجديد، بحكمة وروية ، وكان لابد من تنظيم السبيل الى نشر الدعـوة على أسس مثمرة ، لتصل بنورها الى أعماق المترددين منها ، وتفحم ببرهانها جموع المعاندين لها ، وهكذا اقتضت حكمة المولى عز وجل ، أن يبين لنبيه ورسوله طرفـا من آداب الدعوة الكبرى ، فأوحى اليه بقوله تعالى :

((ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسـنة ، وجادلهم بالتى هى احسن . ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين)) النحل : ١٢٥ .

ولقد ضمنت هذه الآية الكريمة اكرم دستور للداعية الى سبيل اللهـ وسبيل الله هو الاسلام الذى لا يأتيه الباطل

من بين يديه ولا من خلفه ـ واسمى الآداب التى يلزم لــه التأدب بها ، فى دعوته الناس الى الهدى ودين الحــق ، باختلاف جبلاتهم ، وتباين عقولهم وافكارهم .

تضمنت هذه الآية ما ياتى :

أولا : الدعوة الى الله بالحكمة ، التى تخاطب النـــاس بما يناسبهم من أساليب الكلام ، المتفقة مع عقـــولهم ، والمناسبة لظروفهم وجبلاتهم ، فان الناس خلقوا وفطروا على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : يميل بفطرته الى الحق ، ويدرك ببصيرته مدى نصيب الدعوة من الصدق ، ومدى أمانة الداعيـــة فى التبليغ ، فلا يلبث أن يستجيب لنـــداء الحق لأول وهلة ، ولا يتردد فى العمل على نصرته ، والجهاد فى سبيله ، وهكذا كان شأن الرعيل الأول من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى رأسهم الصديق رضى الله عنهم أجمعـــين ، فانهم لم يترددوا فى الاستجابة لدعوة الايمان ، بمجـــــرد استماعهم لما أنزل من القرآن ، وما عرض عليهم من التبليغ والبيـــــــان .

ثانيا : الدعوة الى الله بالموعظة الحسنة : وهذا فيما يختص **بالنوع الثاني من الناس** ، وهـــم أغلبهم ، ممن لـــم يبلغوا حد الكمال الذى وصل اليه الأولون ، ولم ينزلوا الى حضيض النقصان الذى انحدر اليه الكافرون ، فهم على فطرة سليمة ، وخلقة كريمة ، ولكنهم ما زالوا فى تردد بين التزام الباطل الذى نشأوا عليه ، واتباع الحق الذى دعوا اليه ، فهؤلاء يحتاجون الى الموعظة الحسنة ، والقول البليغ

والبيان النافع ، من ترغيب فى اتباع الحق وايضاح لما فيه من خير وبر ، ومن ترهيب من الاصرار على الباطل ، وتدليل على ما فيه من اثم وجور ، وفسق وفجور . وهكذا حتى يتضح لهم الطريق مستقيما ، ويظهر لهم النور ساطعا ، فيضع حدا لترددهم ، ويدفع بهم الى صفوف المؤمنين ، تحت لواء اشرف الأنبياء والمرسلين .

ثالثا : الجدال بالتى هى احسن : وهذا فيما يختص **بالنوع الثالث من الناس** ، ممن سيطرت على قلوبهم حمية الجاهلية واخذتهم العزة بالاثم ، فأصروا على الباطل ، ووقفوا من دعوة الحق موقف العناد والاستكبار ، وقالوا فى ضلالهم المبين : ((**لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**)) (١) أو ((**قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا اءذا متنا وكنا ترابا وعظاما اءنا لمبعوثون * لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا اساطير الأولين**)) المؤمنون : ٨١ — ٨٣ .

ان مثل هؤلاء لا تجدى فيهم بلاغة القرآن ، ولا تنفعهم الموعظة الحسنة ، بل لابد من مجادلتهم بالتى هى أحسن ، باقامة الحجة عليهم ، وبيان الدليل القاطع لهم ، مع التزام الرفق بهم ، واتباع اللين معهم فان ذلك أنفع فى اطفاء جاهليتهم ، وتسكين حميتهم لأن التعسف لن يزيدهم الا اصرارا ، والغلظة لن تزيدهم الا نفورا واستكبارا ، وهكذا حتى ينقادوا الى الحق ، أو يحكم الله فيهم بأمره ، وهو خير الحاكمين ..

---

(١) الزخرف : ٣١ .

أساليب الجدال بالتى هى أحسن :

ولقد عنى المولى عز وجل بتوجيه نبيه صلى الله عليه وسلم ، الى كيفية مجادلة المعاندين بالتى هى أحسن ، لأنهم أولى بالدقة فى الخطاب ، وأحوج الى التلطف والاحتياط ، حتى لا يزدادوا بالدعوة كفرا وضلالة ، وعسى أن ينفذ الى قلوبهم المتحجرة شعاع من الهداية ، قد يكون فيه خلاصهم من الكفر ، واخراجهم من الظلمات .

من أجل ذلك ضرب الله تعالى — فى تعليمه لنبيه صلى الله عليه وسلم — أمثلة من أساليب الجدال بالتى هى أحسن لينهج نهجا ، ويقيس عليها ، فى مثل قوله تعالى :

((قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل الله وانا او اياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين)) سبأ : ٢٤ .

وهذا منتهى الأدب فى الخطاب ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يشك فى كونه على هـــدى من ربه وفى كون خصومه فى ضلال مبين ، ومع ذلك فقد علمه الله كيف يعلن للقوم كل ذلك ، دون جرح لشعورهم ، أو اثارة لكبريائهم ، بعد أن أقام الحجة عليهم ، وقدم البرهان القاطع لهم !! .

ومثـــال آخر لآداب المجادلة ، قوله تعالى :

((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل افرأيتم ما تدعون من دون الله ان ارادنى الله بضر هــل هن كاشفات ضره او ارادنى برحمة هل هن ممســـكات رحمته ؟ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون)) الزمر : ٣٨ .

وفى هذا الأسلوب منتهى الحكمة فى اقامة الحجة ، فبعد

ان اعترف القوم بأن الله هو خالق السموات والأرض ، استفهم منهم النبى — بتوجيه من ربه عـز وجـل — عن آلهتهم ، ومدى قدرتها على رفع الضر ، أو امساك الرحمة ، مع علمه اليقينى بأنها لا تملك شيئا من ذلك، ولكنه أمر بالعدول عن مجابهة القوم بهذه الحقيقة المحرجة لهم ، الى سؤالهم عنها ، فلما عجزوا عن الاجابة ، صدعهم النبى بما أمره به الله من القول الفصل ((**حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون**)) .

ومثال ثالث : قوله تعالى :

((**قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السموات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين**)) الاحقاف : ٤ .

وفى هذه الآية صورة أخرى للمجادلة الهادئة المفحمة ، فبدلا من مجابهة الكفار بعجز آلهتهم عن خلق أى شىء فى الأرض ، وعن أى سلطان لهم فى السماء ، أمر النبى صلى الله عليه وسلم بسؤال القوم عن ذلك ، لأن السؤال أكثـر رفقا ، ويؤدى الى نفس النتيجة ، من ظهور العجـز ، وسقوط الحجة .

* * *

مواجهـة المعاندين بالشدة والغلظة

على أن هذا الأسلوب الحـــكيم فى الدعوة الى الله ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن ، كان يتجه الى الشدة والغلظة ، بالنسبة لنوع آخــر من الناس ، قد وقفوا من رسول الله موقف العداء الصريح ، ومن دعوة الله موقف التكذيب والتجريح ، فكان لابد لسيد الدعاة صلى الله عليه وسلم ، أن يكون موقفه من هؤلاء موقف الحزم داحضا لباطلهم ، وارغاما لأنوفهم .

وكما بين الله تعالى لسيد المرسلين أساليب الرفق فى الدعوة ، والحكمة فى التبليغ ، فانه ضرب له الأمثال فى الرد على المكذبين المعتدين ..

● فهذا هو أبو لهب ، يرى النبى صلى الله عليه وسلم فوق الصفا ، وقد اجتمع حوله الناس ، وهو يقول لهم :

ـ أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلا تخرج بسفح هذا الوادى أكنتم مصدقى .

قالوا : ما جربنا عليك كذبا .

فيقول لهم ((انى نذير لكم بين يدى عذاب شديد)) .

ثم يدعوهم الى الايمان بالله وحده لا شريك له ، فيصيح فيه أبو لهب :

تبا لك : أما جمعتنا الا لهذا ؟ .

فينزل الله تعالى قوله :

« **تبت يدا أبى لهب وتب ...** » ردا على تطاوله على النبى صلى الله عليه وسلم ، وتحقيرا لجاهه وماله .

● وهذا هو الوليد بن المغيرة يسمع من رسول الله من الآيات ما يأخذ بلبه ، ويطرق فؤاده ، حتى أنه ليقـــول : « **والله لقد سمعت منه كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة وان أعــلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، وما يقول هذا بشر** » (١) !! .

ومع ذلك يبالغ فى ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ويرميه بالسحر ، وتأخذه العزة بالاثم ، فيكفر بما أنعم الله عليه من مال وبنين ، وجنـــات وعيون ، حتى كان يسمى الوحيد فى قومه ، وكان يقول فى معرض الكبرياء والفخر ، « أنا الوحيد بن الوحيد ، ليس لى فى العرب نظير » ، وحتى بلغ به الادعاء أن قال : ان كان محمد صادقا ، فما خلقت الجنة الا لى !! .. فأنزل الله تعالى فيه :

« **ذرنى ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالا ممــدودا * وبنين شهودا * ومهدت له تمهيدا * ثم يطمــع أن أزيد * كلا انه كان لآياتنـــا عنيــدا * سنرهقـــه صــــعودا *** » المدثر : ١١ ــ ١٧ .

---

(١) ألجامع لأحكام القرآن ١/٧٢ ، ٧٣ .

فما زال بعد نزول هذه الآيات فى نقصان من ماله وولده حتى هـــــلك .

● وهذا هو الأخنس بن شريق « فيما رواه الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنه ، وكان يلمز الناس ويعيبهم ، مقبلين ومدبرين » (١) وقد ظن أنه لن يقدر عليه أحد ، فأنزل الله تعالى فيه :

« ويل لكل همزة لمزة * الذى جمع مالا وعدده * » (٢)

وبنفس هذا الأسلوب فى القوة والشدة ، الذى قابل بـــه القرآن طغيان الأفراد ، نجده يخاطب جمـــاعات المكذبين المعاندين ، خطاب التحدى لباطلهم ، المعلن عن سوء مصيرهم فى مثل قوله تعالى :

« **ويل يومئذ للمكذبين** » المرسلات : ١٩ .

وقوله : « **ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد * منـــــاع للخير معتد مريب * الذى جعل مع الله الها آخر فألقياه فى العذاب الشديد** » ق : ٢٤ — ٢٦ .

وقوله : « **ان المجرمين فى ضلال وسعر** » القمر : ٤٧ .

وهكذا توضح لنا كل هذه الآداب والأساليب القرآنية ، ما يجب أن يكون عليه الداعية المحمدى من استعداد لتفهـــم الناس ، وقدرة على مخاطبة كل فريق منهم بما يليق بـــه ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨٣/٢٠ .

(٢) سورة الهمزة ١ ، ٢ .

من تلطف ورفق ، أو من شدة وحزم . فانه بذلك يسير بالدعوة قدما الى الامام بما يكتسبه من تأليف لقلوب المؤمنين به ، وتقريب لشقة المترددين منه ، وارغام لأعداء الدعوة على استشعار الهيبة منها ، والاحترام لها .

نحو افق جديد

والآن .. وبعد سنوات طويلة من جهاد متصل ، حمل فيه سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم لواء الدعوة الكبرى سالكا السبيل الذى رسمه الله له ، من قيام بالليل ، وترتيل للقرآن ، وجهاد للنفس ، وتطهير للروح ، وتواضع لله والناس ، ومداومته على الطاعة ، وتبليغ للدعوة ، وتكوين للصف الأول من المؤمنين ، وانذار للعشيرة والأقربين ، وتوكل على العزيز الرحيم ، وصبر على الأذى ، واصرار على اظهار الدعوة ، دون مبالاة بالوعود ، أو خوف من الوعيد ، وصدع بأمر الله ، واعراض عن الكفار والمشركين ، واستخفاف بالحصار والمقاطعة ، والتزام للحكمة والموعظة الحسنة فى خطاب المترددين ، والجدال بالتى هى أحسن مع المعاندين ، واتباع للشدة فى افحام المكذبين ، وتسفيه المعتدين الآثمين ..

الآن وقد مرت الدعوة الكبرى بكل هذه المشاق ، وخرجت منها دائما أقوى عودا ، وأوضح حجة ، وأكثر عددا وانصارا، كان لابد وأن تدفع بها العناية الالهية نحو أفق جديد ، وأن تمدها لطور آخر من كفاح خطير ، وجهاد مرير .

وكما اقتضت مشيئة المولى عز وجل فى رعايته لنبيه وحبيبه ، أن يكفيه شر المستهزئين ، حين أمره بالصدع

بأمره ، والاعراض عن المشركين ، فقد اقتضت رحمتـــــه جلا وعلا ، أن يكرم نبيه والذين آمنوا معه ــ بعد أن قابلوا الأهوال بالصبر الجميل ــ فيخرجهم من هذه المحنة القاسية ليتبوءوا المكان الجدير بما بذلوه من تضحيات ، وتحملوه من جور واعنات تصديقا لوعده الكريم فى كتابه المبين :

« وعـــــد الله الذين آمنـــوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

النـــور : ٥٥ .

من الســـلبية .. الى الايجابيـــة

ولقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذين آمنوا معه ، طوال هذه السنوات ، ملتزما فى القيام بأمر الله ، سبيل المقاومة السلبية ، يقابل العدوان بالصبر ، والأذى بالصفح الجميل ، والاساءة بالاحسان والاكرام ، حرصا منه على هداية النفوس ، وتأليف القلوب ، واطفاء الأحقـــاد ، واكتساب الوقت الكافى لتبليغ الدعوة ، وتدعيم صفوفها ، وتقوية عودها ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وقد كان أصحابه رضوان الله عليهم ، كلما اشتد بهم الكرب ، أو ضاقت بهم الأرض بما رحبت ، يســـــتأذنون الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم ، فى الدفـــــاع عن أنفسهم ، وقتـــــال المشركين عن دينهم ، ومقـــابلة العدوان بالعدوان ، ولكن الرسول الأعظم صلوات الله عليه ، ما كان ليصدر عن هوى ، أو يقدم على غير وحى من ربه وهدى ، فكان يقابل غضبة أصحابه لعدوان ، وحماستهم لنـــزال ،

بأنه لم يؤمر بعد بالقتال ، انتظارا منه لأمر الله تعالى ، ولشفاقا منه على هذه الحفنة المؤمنة — وهو صلى الله عليه وسلم ((**بالمؤمنين رءوف رحيم**)) — أن تدخل معركة غير متكافئة القوى ، قد يكون فيها القضاء المبرم عليها ، بل القضاء التام على الدعوة بأسرها ، لما كان عليه المؤمنون آنئذ من قلة فى العدد ، وضعف فى العدة ، ولما كان يحيط بهم من قوى قاهرة طاغية ، وحشود كافرة باغية .

وهكذا : استمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ملتزما سبيل الدعوة الى ربه ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى كانت بيعة العقبة الثانية ، وفيها بايعه سبعون من أهل المدينة ((**على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن يقولوا فى الله ، لا يخافون فى الله لومة لائم ، وعلى أن ينصروه ويمنعوه اذا قدم عليهم مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبنائهم ، ولهم الجنة**)) (١) .

كانت هذه البيعة ايذانا بانتقال الدعوة من حال الى حال آخر ، فلقد نشأ الاسلام بعدها فى المدينة المنورة ، حتى لم يبق بها بيت الا واقتحمته الدعوة الجديدة بنورها ، وأحس المسلمون فى مكة أنهم لم يعودوا وحدهم فى الميدان ، وأن حالة الجمود التى سيطرت على الدعوة لسنوات طويلة ، تحولت الى حياة متدفقة فى ميادين أخرى ، لا سيطرة لكفار

---

(١) البداية والنهاية ١٥٩/٣ .

قريش عليها ، فضاعف ذلك من عزيمتهم ، وجدد الأمل البعيد فى نصر من الله وفتح قريب .

كانت هذه البيعة ايذانا بانتهاء عهد احتمال الأذى ، والسكوت على الضيم ، وبدءا لعهد آخر ، يعد فيه المسلمون العدة للدفاع الايجابى عن أنفسهم ، ووضع حد للظلم الواقع بهـــم .

الهجـــرة فى سبيل اعـــلاء كلمة الله

وكان لابد لتحقيق كل ذلك من الخروج من هذه القرية الظالم أهلها ، التى وقفت أكثرية أهلها من دعوة الحق ، موقف العناد والتكذيب ، وموقف التحدى والعدوان ، لأنــه لا مجال لتجميع القوى ، وتنظيم الجهود ، فى مجتمع مضاد للدعوة ، كافر بمبادئها وأهدافها .

من أجل ذلك كانت الهجرة الكبرى ، هى الخطـــوة الحاسمة فى حيـــاة الدعوة ، والحد الفاصل بين الضعف والقوة ، وبين الذل والعزة ، وبين الجمود والانطلاق .

وهكذا : أمر النبى صلى الله عليه وسلم وأصـــحابه بالخروج الى المدينة ، واللحوق باخوانهم من الأنصار ، وقال لهم : ((**ان الله قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها**)) .

وكما بدأت الدعوة بمكة الى الله سرا ، فكذلك بـــدأت الهجرة الى المدينة المنورة سرا ، حرصا من النبى صلى الله عليه وسلم على سلامة أصحابه ، وحتى لا يؤدى اعـــلان الهجرة الى تحفيز اعداء الدعوة ، للوقوف فى وجهها ، والسعى الى أحباطها .

لقد ظل النبى يرقب هجرة أصحابه ، أفرادا وجماعات ، وهو فى مكان القائد الحريص على جنوده ، القائد الذى يعرف معنى القيادة ، ويعطيها حقها من الثبات والفداء ، فيكون اول من يقدم لمجابهة الأخطار ، وآخر من ينجو من مواطن الهلاك والدمار .

وحينما اطمأن النبى صلى الله عليه وسلم على سلامة اصحابه وانه لم يبق منهم بمكة من حبس أو فتن ، لحق صلى الله عليه وسلم بمن سبقه الى المدينة ، باذن من ربه عز وجل لتبدأ دعوة الحق مرحلة جديدة من الكفاح الايجابى ، تقابل فيه القوة بالقوة ، والعدوان بالعدوان حين نزل الاذن بالقتال .

الاذن بمقابلة القوة بالقوة

وهكذا : اذن الله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه ، ان يمتشقوا الحسام ، وبشرهم فى نفس الوقت ، بدفاعه عنهم ، ونصرته لهم ، فأوحى الى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بقوله :

((ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يحب كل خوان كفور * اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز))
الحج : ٣٨ — ٤٠ .

وهكذا : بلغ من تكريم الله تعالى لهذه الحفنة المؤمنة ، التى جاهدت وصبرت ، وهاجرت وضحت ، انه وعدهم بالدفاع عنها ، قبل ان يأذن لهم بالقتال ، ثم اكد لهم قدرته على نصرهم ، رغم قلة عددهم وضعف عدتهم ، تشجيعا لهم وتثبيتا لأقدامهم .

ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، فلا يخافون ظلما ولا هضما ، ولا يخشون هزيمة أو اندحارا .. ما دام ايمانهم بالله قويا ، واعتمادهم عليه كاملا .

ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، فلا استكانة بعد اليوم لظلم ، ولا خنوع بعد اليوم لقوة ، ولا حياة بعد اليوم الا حياة العزة والكرامة ، والقوة والسيادة .

ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، الذين لو كتب الله لهم النصر لساروا فى الارض سيرة المتقين ، فاقاموا الصلاة .. وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا .

ولقد أوضحت هذه الآيات البينات ، أن الجهاد فى الاسلام لم يشرع لمجرد السيطرة والاستعمار ، وانما شرع لأهداف سامية ، وغايات انسانية عادلة ، منها درء الظلم ، وايجاد التوازن الضرورى لدفع الظالمين ، وايقافهم عند حدهم ، وتوفير الحماية لبيوت الله باختلاف أديان العابدين فيها ، من صوامع للنصارى ، الى بيع لليهود ، الى صلوات للمسلمين ، وهى المساجد ، وليس بعد ذلك ما هو اشرف هدفا أو أسمى غاية .

وكما اقتضت مشيئة المولى عز وجل ، فى رعايته لنبيه وحبيبه ، أن يكفيه شرا المستهزئين ، حـــين أمره بالصـــدع بأمره ، والاعـــراض عن أعـــدائه ، فكذلك اقتضت حكمتـــه — فى هذه الدفعة الجديدة من الدعوة — أن يعده بالعصمة من الأذى ، والحماية من العدوان ، تثبيتا لأقدامه ، وشحذا لعزيمته ، وتدعيما لايمان أصحابه وانصاره .

وهكذا أوحى رب العالمين ، الى سيد المرسلين :

((يا أيهـــا الرســـــــول بلغ ما أنزل اليك مـــن ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدى القوم الكافرين)) (المائدة ٦٧) .

ولقد تضمن هذا البلاغ الالهى العظيم ، من التوجيهات الحاسمة ، ما يجب الوقوف منها موقف التأمل والاعتبار .. والتفقه والاستبصار .

تضمن هذا البلاغ العظيم :

أولا : الأمر بوجوب تبليغ الدعوة ، والاصرار عليها ، وهو تأكيد لما سبق من أوامر بالانذار والصدع ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم ، ما قصر قط فى تبليغ ما أنزل اليه وانما المقصود من هذا الأمر الجديد هو مضاعفة الجهـــد ، والتماس الوسائل المختلفة لاعلان الدعوة ، أشـــد ما تكون قوة وصراحة ، وأعظم ما تكون بيانا واضحا . لأن هذه

الدعوة ليست دعوة أحد من الناس ، انما هي دعوة رب العالمين ومن ثم فان القيام بأمرها ، يجب أن يكون بالصورة التى تتفق مع عظمة هذه النسبة المقدسة ، ومالها من قوة وقهر وسلطان .. وما يحق لها من امتثال واستجابة واذعان .

ثانيا : الأمر بأن تبليغ الدعوة يجب أن يكون كاملا شاملا ، لأنها كل لا يتجزأ ، ولأن التغاضي عن تبليغ أى جزء منها كالتغاضي عن تبليغ الدعوة كلها ، ((**وان لم تفعل فما بلغت رسالته**)) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : المعنى : بلغ جميع ما انزل اليك من ربك ، فان كتمت شيئا منه فما بلغت رسالته (١) .

وهذا الخطاب وان كان موجها الى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، ففيه توجيه وتحذير للعلماء كافة حتى لا يترددوا فى اظهار حكم الله فى كل الأمور التى تعرض لهم ، والا يكتموا شيئا من شريعته ، رغبة فى ارضاء الحكام ، أو رهبة من بطشهم وطغيانهم ، فالله تعالى احق بالرغبة فى رضائه ، والرهبة من سخطه ، قال صلى الله عليه وسلم :

((**من ارضى الناس بسخط الله وكله الله الى الناس ، ومن اسخط الناس برضا الله ، كفاه الله مؤنة الناس**)) (٢) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/٢٤٢ .

(٢) الترمذى عن عائشة رضى الله عنها باسناد حسن .

ثالثا : الوعد بالعصمة والحماية للنبى صلى الله عليه وسلم ، اذا قام بأمر الله حـق قيـام ، وبلغ دعــوته الى الناس دون خشية من لائم ، أو خوف من ظالم ، وكفى به عز وجل قاهرا فوق عباده ، غالبا على أمره ، قادرا على نصرة أوليائه ، ومحق أعدائه ، والله أشـد بطشـا وأشـد تنكيــلا .

وهــذا الوعد الكريم من رب العــالمين ، الى أشرف الأنبياء والمرسلين ، يسرى على كل من نهج نهجه ، واتبع سبيله الى يوم الدين ، فان الله تعالى عاصمه من الناس ، بقدر ما يكون عليه من صدق فى الجهاد ، واخلاص فى التبليغ والارشاد . قال تعالى :

((انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)) غافر : ٥١ .

وقال تعــالى :

((ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز * الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهــوا عن المنكر . ولله عاقبــة الأمــور)) الحج : ٤٠ ــ ٤١ .

ولقد صدق الله تعالى وعده لنبيه ورسوله ، فتحققت له من العصمة ماحمله حين نزول هذه الآية ــ وقــد كان

وقتئذ فى حراسة سعد بن أبى وقاص ، وحذيفة رضى الله عنهما — أن يطل عليهما قائلا :

— ((**انصرفوا أيها الناس ، فقد عصمنى الله**)) (1)!!.

● ومن ذلك الحين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعتمد فى ذهابه وايابه على حراسة أحد بعد الله تعالى .

● صدق الله تعالى وعده لنبيه بالحماية والعصمة ، حتى أنه صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته ، نزل تحت شجرة ، فعلق سيفه بغصن من أغصانها ، ونام فى ظلها ، فأتاه احد المشركين واخذ السيف وقام على رأسه صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك مني ؟ فقال صلى الله عايه وسلم : الله !! فذعرت يد الاعرابى وسقط السيف من يده وضرب برأسه الشجرة حتى أنتثر دماغه ..

● ومن ابلغ مظاهر عصمة الله تعالى لنبيه صلي الله عليه وسلم قبل ذلك : انه لما مات عمه ابو طالب ، وكان له مدافعا وظهيرا ، بكل ما يملك من نفس ومال ، وجاه ورجال : اجترأ سفهاء قريش على سيد المرسلين ، ونالوا منهما لم ينالوا من قبل ، فسخر الله أبا لهب — وهو من هو فى عدائه للنبى وكفره بالله — فجاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد اغضبه ما نالته قريش منه ، فقال له : ((يا محمد ! امض لما اردت !! وما كنت صانعا اذا كان ابو طالب حيا فاصنعه : لا واللات ! لا يوصل اليك حتى أموت)) ! .

---

(1) الجامع لأحكام القرآن ٦/٢٢٤ .

وذلك ولا شك من فعل الله تعالى ، الذى بيده قلوب العباد يقلبها حيث يشاء ! .

ولا يقلل من حقيقة هذه العصمة ما أصــاب النبى فى بعض الغزوات من أذى ، كالذى وقع له بأحد ، فان المقصود بالعصمة ، الحماية من التسلط عليه بالقتــل أو الأسر ، حتى يصل بالدعوة الى النهاية المقدرة لها فى علم الله تعالى .

ولقد تحقق ذلك بالفعل ، فظل النبى صلى الله عليه وسلم فى حماية من ربه رغم كل الغزوات التى غزاها، والأخطار التى اجتازها ، حتى تحقق النصر لدعوة الحق ، ودخــل الناس فى دين الله أفواجا .

كذلك لا يقلل من حقيقة هذه العصمة للمؤمنين ، ما يصيب البعض منهم من بلاء أو اعتداء ، فان لكل أجل كتابا ، ولابد للحياة من نهاية .

وسواء كانت هذه النهاية على فراش الموت ، كما حدث لخالد بن الوليد رضى الله عنه حيث قال : **لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها . وليس فى جسمى موضع شبر الا وفيه ضربة من سيف أو طعنة من رمح ، وها انذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء !! .**

أم كانت هذه النهاية فى ميدان الفخر والشهادة ، التى بها ترفع الدرجات ، وتكفر الخطايا والسيئات ، كما حــدث للخلفاء الراشدين ، عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهــــم أجمعين ، وكما حدث بعد ذلك لأكرم الشهداء ، وحفيد سيد المرسلين والأنبياء ، الامام الحسين رضى الله عنه وعن جميع من أستشهد معه من أهل البيت ، ومن والاهم من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وما بدلوا تبديلا .

فمفهوم العصمة التى وعد الله بها المجاهدين فى سبيله ، انما هى العصمة من أذى الناس ، وسيطرة الكفـــار والمنافقين ، اثناء الحياة التى كتبت لهم ، حتى يعيشوا بين الناس عيشة كريمة ، لا ذل فيها ولا ارغام ، يثبتهم الله بالقول الثابت فى حياتهم الدنيا ، لا يجول بينهم وبين القيـام بحق الله حائل ، ولا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله .

أول دستور نبوى فى المدينة

ولقد كان أهم ما عنى به النبى صلى الله عليه وسلم بعد وصوله الى دار الهجرة ، أن يحدد العلاقة بين المهاجرين والأنصار من جهة ، وبين المسلمين عموما وبين اليهـود المقيمين بالمدينة من جهة أخرى ، حتى يعرف الجميع ما لهم وما عليهم ، وحتى يتحقق للجميع الاستقرار الضرورى فى المجتمع الجديد ، بما يمكن النبى صلى الله عليه وسلم من تنظيم الدعوة ، وتوفير أسباب القوة والظهور لها .

وهكذا : عقد النبى صلى الله عليه وسلم الالفة بين المهاجرين والانصـار ، وآخى بينهم فى الله أخـوة جعلتهم كالجسد الواحد ، أذا اشتكى منه عضو تداعى له سـائر الأعضاء بالسهر والحمى . وفى نفس الوقت وادع اليهـود وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم ، وكتب بذلك كتابا ، كان بمثابة دستور مؤقت للمجتمع الجديد، هذا ملخصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هـــذا كتـاب من محمد النبى الأمى ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد

معهم ، أنهم امة واحدة من دون الناس ، لا يتركون مفرحا (١) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء وعقل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (٢) ظلم أو اثم أو عدوان ، وان أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم ادناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى الى بعض دون الناس ، وان من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وأن المؤمنين يبىء(٣) بعضهم بعضا بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وانه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل . وانكم مهما اختلفتم فيه من شىء فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وأن يهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى حشم وبنى الأوس ، وبنى ثعلبة وجفنة وبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم .. وان الجار كالنفس غير

(١) المفرح : المثقل بالديون والكثير العيال .
(٢) الدسيعة : العظيمة . (٣) يبىء : يمنع .

مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة الا باذن اهلها ، وانه ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله ، وانه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وان من بينهم النصر على من دهم يثرب ، واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه .. وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وانه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم أو اثم ،وان الله جار لمن بر واتقى .. (١) »

ولقد قرر هذا الميثاق الذى عقده النبى صلى الله عليه وسلم بين اهل المدينة من مهاجرين وانصار ، ومسلمين ويهود ، الخطوط العريضة لنظام المجتمع الاسلامى ، الذى يحقق التكافل الاجتماعى والتعاون بين أبناء الاسلام من ناحية ، ويحدد الصلات الطيبة بينهم وبين غيرهم من اليهود من ناحية أخرى .

توثيق الروابط بين دعاة الحق بالأخوة فى الله

ووضع النبى صلى الله عليه وسلم هذا الميثاق موضع التنفيذ ، بين المهاجرين والأنصار ، فقال لهم « **تآخوا فى الله اخوين أخوين** » ، وضرب المثل العملى والقدوة الطيبة لما دعا اليه ، فأخذ بيد على بن ابى طالب رضى الله عنه وقال :

هذا أخى ...

فكان صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب أخوين .

---

(١) البداية والنهاية ٢٢٤/٣ و ٢٢٦ .

وكان حمزة بن عبد المطلب ـ أسد الله ـ وزيد بن حارثة اخوين .

وجعفر بن أبى طالب ـ ذو الجناحين ـ ومعاذ بن جبل اخوين .

وأبو بكر وخارجة بن زيد الخزرجى اخوين .

وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك اخوين .

وأبو عبيدة وسعد بن معاذ اخوين .

والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود أخوين .

ويقال : الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود أخوين .

وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين .

وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك اخوين .

وسعيد بن زيد وأبى بن كعب اخوين .

ومصعب بن عمير وأبو أيوب أخوين .

وأبو حذيفة بن عتبة ومعاذ بن بشر اخوين .

وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان اخوين .

ويقال : بل كان عمار وثابت بن قيس اخوين .

وحاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة اخوين .

وسلمان وأبو الدرداء اخوين .

وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع اخوين (١) . .

---

(١) البداية والنهاية ٢٢٦/٣ و ٢٢٧ من رواية ابن اسحاق .

وهكذا فيما يتعلق ببقية المهاجرين ، آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كل منهم وبين واحد من الانصار ، اخوة بلغت من القوة حد المشاطرة فى الأموال والديار ، بل بلغت الى ما هو أكثر من ذلك عمقا وايثارا ، مما استحق ثنـــاء المولى عز وجل على الأنصار ، لما تدموه عن طيب خـــاطر من تضحيات غالية ، وأظهروه من مشاعر سامية .

قال تعـــالى :

(والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجـــة مما أوتوا ، ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) .

وأى أخوة وتعاون أعظم وأروع من استجابة الأنصـــار رضى الله عنهم ـ دون تردد ـ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين قال لهم :

ان اخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجـــوا اليـــكم .

فأجابوا على الفور : **أموالنا بيننا قطائع ، اقسم بيننا وبين اخواننا النخيل .. !!**

أى أخوة ومحبة أوثق وأصدق من موقف سـعـــد بن الربيع الأنصارى ، وقد آخى النبى صلى الله عليه وســلم

بينه وبين عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما ، فقال له سعد :

ــ أى أخى : انا أكثر اهل المدينة مالا ، فانظر شطر مالى فخذه ، وتحتى امرأتان فانظر أيهما أعجب اليك حتى أطلقها !

ولكن عبد الرحمن بن عوف وقف موقف المتعفف من هذا العرض السخى ، والشعور الكريم ــ شأنه فى ذلك شأن غيره من المهاجرين فى سبيل الله ــ فقال لأخيه :

ــ بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلنى على السوق ..

فذهب فاشترى وباع فربح (١) .

وهكذا كان موقف الأنصار جميعا من اخوانهم فى الله : كرم فى سخاء ، ومحبة فى ايثار ، حتى قال المهاجرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ــ يا رسول الله : ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم ، أحسن مواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلا فى كثير ، لقد كفونا المؤونة ، واشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله !

---

(١) الامام احمد من حديث أنس رضى الله عنه .

قال صلى الله عليه وسلم : ((**لا !! ما اثنيتم عليهم ، ودعوتم الله لهم**)) (١) .

***

هذا هو الاسلام فى روعته

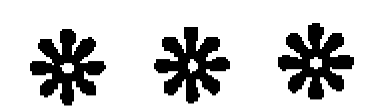
هذا هو الاسلام فى روعته ، فأعظم به من دين ، وأكرم به من شريعة ، انه النور الذى ينفذ الى أعماق المؤمنين به ، فيدفعهم الي التباذل والتناصر ، وألى التضحية والايثار ، دون قسر أو ارغام ، استجابة لداعى الأخوة فى الله ، البريئة من كل هوى ، والمحبة الصادقة ، السليمة من كل شائبة او حقد ، وشتان بين هذا الدين ألقيم فى علاجه لمشاكل المجتمع وتحقيقه للتكافل التام بين أفراده ، مع بقاء القلوب صافية، والنفوس راضية ، وبين تلكم النظم الوضعية التى ما انزل الله بها من سلطان ، التى تقوم على اغتصاب الأموال ، وانتزاع الديار ، فى ايغار للصدور ، واثارة للأحقاد ، وتأليب للطبقات مما يؤدى الى فتنة فى الأرض وفساد كبير ، ورحم الله شوقى أمير الشعراء حيث يقول :

الاشتراكيون أنت امامهم
لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداووا طفرة
واخف من بعض الدواء الداء

---

(١) الامام أحمد من حديث انس رضى الله عنه .

وبهذه الأخوة الصادقة فى الله ، ختم النبى صلى الله عليه وسلم مرحلة طويلة من جهاد شاق فى سبيل الدعوة الكبرى ، ووضع بتوجيه من ربه عز وجل ، الحجر الأساسى فى بناء المجتمع القوى ، الذى يحتضن دعوة الحق ، ويحمل لواءها ، ويواصل الكفاح الايجابى فى سبيلها ، لتحقيق ما كتبه الله لها من ذيوع وانتشار ، وما قدره لها من ظهور وانتصار .



محتويات الكتاب

الموضــــوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٥٦ — ١٩٧٩

الترقيم الدولى ٧ — ٨٤ — ٧٣٠١ — ٩٧٧

هذه الرسالة

الدعوة الى الله يجب أن تكون على بينة وبصيرة ، وقائمة على دراسة وتخطيط ... نحدد مبادئها ، ودعاماتها ، وغايتها ، وسبيلها ، ووسائلها ، وشروط العاملين فيها ، وخصومها وخططهم ...

وهذه الرسالة تتناول موضوع سبيل الدعوة ، كما أوضحها لنا كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وهى تقوم على ثلاثة عناصر :

- قيادة مؤمنة صادقة .
- صف أول من المؤمنين المخلصين .
- أدب اسلامى فى الدعوة والتبليغ .

